أمن أوراسيا وحسابات القوى الكبرى

أ.د. سعيد صلاح الدين النشائي*
أكاديمي وباحث مقيم في كندا

* جامعة بريتش كولومبيا، فانكوفر/ كندا

مقدمة

أوراسيا هي هذه البقعة من العالم التي تتواصل فيها قارتي آسيا وأوربا، فهي تجمع ما بين شرق أوربا وغرب أسيا، وهي قلب العالم ومحور صراعاته منذ فجر التاريخ، فهي تشمل من قارة آسيا تركيا والجمهوريات السوفيتية السابقة القوقازية كجورجيا، وأيضا أوكرانيا وأذربيجان وأرمينيا وتركمانستان، وبذلك فإنها تحدد جغرافيا بدول آسيا ما حول بحر قزوين والبحر الأسود وتشمل من أوربا الدول التي تطل على البحر الأسود كبلغاريا ورومانيا ودول شرق أوربا المتوسطية كاليونان ومقدونيا. وقد أنتجت في الجانب الأوروبي الحضارة اليونانية والرومانية وخرج منها الإسكندر الأكبر بتاريخه وسيطرته على العالم، وخاصة الجانب الآخر من البحر الأسود، متوغلاً في بلاد فارس والقوقاز، وفي الجانب الأسيوي كانت هناك حضارة فارس وهذه الهجمات الاستعمارية القادمة من غرب آسيا من المنطقة القوقازية، أو ما يعرف (بخط الإستبس).

لقد شكلت أهمية هذه المنطقة بإشارة بعض المنظرين الأمريكيين منذ فجر القرن العشرين، وتحديداً مع بداية الانهيار للخلافة العثمانية في عشرينيات القرن الماضي، وهذه الأهمية لم تكن فقط لهذا الموقع الجغرافي المتميز فقط، بل زاد من ذلك كون هذه المنطقة هي مخزن الطاقة العالمي بدءاً من نفط الشرق الأوسط، في ما تسمى السعودية وإيران والعراق ودول الخليج إلى هذا المخزن البكر في منطقة بحر قزوين.

هي هذه البقعة من العالم التي تتواصل فيها قارتي آسيا وأوربا، فهي تجمع ما بين شرق أوربا وغرب أسيا، وهي قلب العالم ومحور صراعاته منذ فجر التاريخ.

وفي قراءة سريعة بدءاً من تفكك الدولة العثمانية، والذى انتهى بالحرب العالمية الثانية، وظهور القطبين المنتصرين القطب السوفيتي سابقاً والقطب الأمريكي ودخول هذين القطبين في صراع بين أيديولوجيتين ونظاميهما النظام الرأسمالي بأيديولوجيته الليبرالية المتوجه بالاقتصاد الحر الرأسمالي، والتي تزعمته أمريكا بعد الانكسار الأوربي في أعقاب الحرب العالمية الثانية، والنظام الاشتراكي بأيديولوجيته الاشتراكية الجماعية باقتصاد اشتراكي تقوده ديكتاتورية الطبقة العاملة، وبقيادة الاتحاد السوفيتي قبل أن تنضم الصين إلى المعسكر الاشتراكي، برغم خلافتها مع الاتحاد السوفيتي.

بين هذين المعسكرين قُسِّمت منطقة (الأوراسيا)، فأصبحت تركيا واليونان في كنف المعسكر الرأسمالي، وأعضاء في حلف الأطلنطي وأصبحت رومانيا وبلغاريا في كنف المعسر الاشتراكي وانضموا أعضاءً في حلف وارسو، فضلاً عن الجمهوريات السوفيتية الآسيوية، نتيجة لهذه القراءة في صراع المعسكرين لم تخضع منطقة الأوراس، إلى أي معسكر من المعسكرين المتصارعين اللذين دخلا في حرب باردة فرضها عليهما توازن قوى الرعب النووي بين المعسكرين[1].

(1) See: Patrick J. Buchanan,Who's in Charge of Russia Policy?, December 29, 2004, http://antiwar.com/.

هذا الصراع في التسعينات من القرن الماضي، أدى إلى تفكك اتحاد الجمهوريات السوفيتية، وتبعه تفكك حلف وارسو، أيضاً أصبحت الصين دولة رأسمالية، وإن كانوا يدعون أن القيادة للحزب الشيوعي الصيني[2]، وتلى هذا التطور إعلان أمريكا كقطب وحيد وصاحبة السطوة والسيطرة على العالم بصفتها الشرطي الوحيد في العالم منذ بداية تسعينيات القرن الماضي، وفرضها لنظام عالمي جديد هو نظام العولمة نتيجة التقدم الرهيب الذى حققته الثورة التكنولوجية وثورة المعلومات والرقمية، والذي أصبح العالم بمقتضاها قرية صغيرة، قررت أمريكا تحقيق حلمها في السيطرة على منطقة أوراسيا حتى تكرس سيطرتها العالمية بامتلاكها قلب العالم، فبامتلاكها لقلب العالم سيتحقق لها الآتي:

(2) Kari Liuhto, Energy in Russia's foreign policy, Electronic Publications of Pan-European Institute 10/2010,p.8

قررت أمريكا تحقيق حلمها في السيطرة على منطقة أوراسيا حتى تكرس سيطرتها العالمية بامتلاكها قلب العالم.

1 ـ أن تحيط روسيا الاتحادية بحلف الأطلنطي، للحد من قدراتها النووية ومحاولة ضرب هذه القدرات بمنظومة دفاعية من الصواريخ المضادة للصواريخ البالستية الروسية عابرة القارات، والتي تحمل رؤوساً نووية من شأنها أن تهدد دول

النظام الرأسمالي العالمي، وعلى رأسهم أمريكا نفسها هذا مع محاولة إخضاع الدب الروسي والسيطرة عليه في الحقبة اليلستينية الأمر الذى رفضته روسيا البوتينية، والتي أزاحت بمقتضى هذا الرفض يلتسين من السلطة لتبدأ روسيا مرحلة جديدة لتثبيت قوتها الرادعة في حقبة بوتين[3].

See: Marshall I. Goldman, (3) petrostate (putin, power, and the new Russia)Oxford University press, New York,2008,p.p.170-171.

2 ـ محاولة وقف والحد من قدرات التنين الصيني الصاعدة والمارد الهندي.

3 ـ السيطرة على منابع الطاقة في الشرق الأوسط، ولا سيّما دول الخليج والعراق بعد خروج إيران بثورتها الإسلامية.

4 ـ السيطرة على مخزن الطاقة القزويني، ليكون بديلاً عن طاقة الشرق الأوسط الخليجية في حالة احتدام الصراع وفرض النظرية الهنتنجتونية لصراع الحضارات.

ولتحقيق تلك الأهداف قامت أمريكا بصفتها زعيمة المجتمع الدولي، بتهيئة بيئة صالحة للتطرف الديني وخاصة الإسلامي، والتي عملت على تكوينه وتنشئته منذ إعلان حربها ضد الاتحاد السوفيتي المستترة في أفغانستان، ودفع جماعات مسلحة ومدربة لمقاومة القوات السوفيتية في أفغانستان، وإنشاء تنظيم القاعدة وحركة طالبان في أفغانستان الأمر الذى أدى إلى أحداث 11 سبتمبر (أيلول) والتدخل الأمريكي لاحتلال أفغانستان، بحجة مقاومة الإرهاب هذا الأمر أدى إلى[4]:

قامت أمريكا بصفتها زعيمة المجتمع الدولي، بتهيئة بيئة صالحة للتطرف الديني وخاصة الإسلامي.

See: Jonathan Stern, The (4) new security environment for European gas: worsening geopolitics and increasing global competition for LNG, Edited by Francois Leveque, In Security of Energy Supply in Europe Natural Gas, Nuclear and Hydrogen, Edward Elgar Publishing Limited, UK, 2010, p.82.

1 ـ وضع جدار عسكري يمنع التمدد الصيني ناحية الغرب.

2 ـ محاصرة الهند شمالاً وغرباً بعد دخول باكستان في التحالف الأمريكي ضد الإرهاب.

3 ـ التطويق الأطلنطي للجنوب الروسي، وإثارة القلاقل للدب الروسي بواسطة حركات مقاومة شيشانية.

4 ـ عزل منطقة الأوراس عن الامتداد الطبيعي لها، تمهيداً لوضعها تحت السيطرة الأمريكية وإحاطتها بقوات أطلنطية.

5 ـ تأكيداً لفرض السيطرة، ولحصر جيب مقاوم وهو إيران وعدم التمكن من

كسره بواسطة دفع العراق بحرب معها، قامت أمريكا بعمل نسق ثانٍ لمنع التمدد الأسيوي الصيني والهندي، ومحاصرة منطقة الأوراس الأسيوية باحتلال العراق، واخترعت لهذا الاحتلال أسباب واهية سرعان ما تم كُشف زيفها وكان من أهم أسباب هذا الاحتلال إخضاع مصدر الطاقة العراقي للمشيئة الأمريكية، حتى لا يناور به النظام السابق، ويعده مغذياً رئيسياً لدول شرق وجنوب آسيا خاصة الصين والهند[5].

(5) لمزيد مَنْ التفاصيل ينظر: اندريه كيسلياكوف، تعاون روسيا والصين في ارتياد الفضاء، وكالة نوفوستي:/http://www.ru4arab.ru cp/eng.php?id = 20050106151957

بعد دخول الدول الأوروبية من الجانب الأوراسي كأعضاء في حلف الأطلنطي، لم يتبقَ إلا دخول الدول التي على الجانب الآخر من البحر الأسود كأوكرانيا وجورجيا وبإخضاع هاتين الدولتين للمشيئة الأمريكية، يكون الحلم الأمريكي للسيطرة على قلب العالم قد تحقق، ولهذه السيطرة آلية لتحقيقها تبدأ من توفير شخصيات كرئيس افغانستان (ككرزاي الأفغاني)، ودفعها إلى تولي السلطة في هاتين البلدين فتم دفع شكافيلي إلى جورجيا وتنحية شيفرنادزة، وقيام الثورة البرتقالية في أوكرانيا حتى تكون موالية لأمريكا.

كانت الخطوة الباقية هي انضمام جورجيا وأوكرانيا وإقامة منظومة الدرع الصاروخي في بولندا وتشيكيا، حتى يتم الاستيلاء الكامل على العالم، وتحييد القدرات الصاروخية الروسية وتتحقق النظرية الهنتجنتية في صراع الحضارات:

1 ـ القضاء المبرم على ما تبقى من حضارة إسلامية بإرثها الثقافي المناهض للحضارة الغربية الفوكويامية.

2 ـ طبقاً لهنتنجتون تكون المرحلة الثانية هي التوجه الأمريكي لمسح الإرث المتبقي من الحضارة الصينية.

الخطوة الباقية هي انضمام جورجيا وأوكرانيا وإقامة منظومة الدرع الصاروخي في بولندا وتشيكيا، حتى يتم الاستيلاء الكامل على العالم، وتحييد القدرات الصاروخية الروسية.

هذا ما دفع سكافيلي إلى جموح بمحاولة إعادة أوستيا الجنوبية، وربما كان يطمح الرئيس الجورجي في حالة نجاح مجزرته في أوسيتيا الجنوبية، أن يكرر الموقف مع أبخازيا الجمهورية المنفصلة عن جورجيا، إلا أن الرد الروسي كان حازماً وحاسماً في مواجهة جورجيا وقامت القوات الروسية بطرد القوات الجورجية المدعومة معنوياً من

أمريكا، وكادت القوات الروسية أن تستولي على كل جورجيا حتى إنها كانت على مقربة من العاصمة تبليسي، إلا أن روسيا حافظت على الباب مفتوحاً مع الغرب وخاصة مع الدور الفرنسي المعتدل بالنسبة للجموح الأمريكي، وكان الاعتراف الروسي بالجمهوريتين الإنفصاليتين خطوة متقدمة للحد من التمدد الأمريكي، والاستيلاء الكامل على منطقة الأوراسيا، إذ إن التطويق الروسي لجورجيا عن طريق أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا المطلة على البحر الأسود، قد قطع الطريق على السيطرة الأمريكية على منطقة أوراسيا[6].

(6) نورهان الشيخ، روسيا الشريك الطبيعي للصين، مجلة السياسة الدولية، العدد 138، مركز الاهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة2011، ص95.

فضلاً عن التراجع عن التأييد الشعبي في أوكرانيا، ومحاولة المعارضة الأوكرانية إلى إعادة الاستيلاء على السلطة، إن الموقف الروسي قد أعاد روسيا الاتحادية إلى موقعها الطبيعي في مواجهة التمدد الأمريكي، الذى يحاول محاولة روسيا ومحاصرتها، إلا أن القوة العسكرية الروسية كشرت عن أنيابها، وحسمت الأمر في رسالة إلى أمريكا مؤداها القول لأمريكا (إلعبي بعيداً عن الأمن القومي الروسي).

كانت الرسالة الثانية هي إن كانت أمريكا ومجتمعها الدولي، قد نشيطين في كوسوفو، فإن روسيا وحلفائها في مجموعة شنغهاي، لديهم القدرة على ممارسة نفس اللعبة، وفرض توازن في الصراع العالمي، إن التهديد الروسي بضرب بولندا بالنووي في حال وافقت على نشر الدرع الصاروخي على أرضها، هو تهديد جاد لحماية الأمن القومي الروسي، إن الربط الروسي بين عملية تحرير اوسيتيا الجنوبية بحرب لبنان 2006، وانتصار حزب الله في هذه الحرب على أمريكا والكيان الصهيوني، كان ربطاً ذكياً للرد على التغلغل الصهيو ـ أمريكي في جورجيا، وتزويدها بالسلاح والعمل منها كقاعدة عسكرية، إذا تقرر توجيه ضربة عسكرية إلى إيران[7]، وهو ما يحلم به الكيان الصهيوني، إن استطاع أن يوفر الظروف المناسبة، وأن يضمن الانتصار وليس تكرار هزائمه في لبنان عامي 2000 و2006.

إن القوة العسكرية الروسية كشرت عن أنيابها، وحسمت الأمر في رسالة إلى أمريكا مؤداها القول لأمريكا (إلعبي بعيداً عن الأمن القومي الروسي)..

(7) نقلاً عن: زياد عبد الوهاب النعيمي، العلاقات الروسية الأمريكية ملامح أولية... لحرب باردة، عبر شبكة المعلومات الدولية: http:// pulpit.alwatanvoice.com/index.html

إن العملية الجورجية قد عملت على إظهار الصراع الخفي بين القوى المتصارعة، وإظهار كل جانب من جانبي الصراع لتحالفاته، هذه العملية قد أنهت الزعامة الأمريكية للعالم على أساس إنها الشرطي الأوحد للعالم، وأظهرت أن هناك قوى أخرى تتصدى لهذا التسلط الامريكي، وهو درسٌ

لأمريكا بأن قلب العالم (أوراسيا)، لا يمكن لقطب واحد أن يسيطر عليه، لأن هذا معناه وضع نهاية لهذا العالم خاصة في وجود القوة التدميرية النووية لدى الطرفين، وأن الأمن القومي الروسي له ثقله ويجب المحافظة عليه، والأمر المهم هنا هو مواجهة الطرف المسيطر ومقاومته مقاومة واعية تكون نتيجتها الانتصار لامتلاكها القدرة على مقومات الصمود.

أولاً: التطورات الأخيرة والوضع الحالي

شهدت السنوات الأخيرة تطورات خطيرة في الساحة العالمية، سيكون لها تأثيرات مهمة على الأوضاع في منطقة الشرق الأوسط، وبشكل خاص منطقة أوراسيا، وهذه التطورات ليست وليدة السنوات الأخيرة فقط، ولكنها تختمر منذ فتره طويلة، فبعد أحداث 11/ ايلول، وتدمير أبراج نيويورك واستخدام هذه الجريمة التي أخرجتها المخابرات الأمريكية، قاموا باستخدامها كغطاءً للهجوم على العراق، بدعم حكام عرب، واستخدموا غطاء الإرهاب، الذى هو من صنعهم، لاحتلال أفغانستان ومحاربة منظمة من صنعهم هي طالبان وتعيين حاكم عميل لهم وهو كريازي، وفي العراق وأفغانستان قتلوا الملايين، ولكن لم يحققوا أي انتصار حقيقي برغم كل التدمير الذي قاموا به.

إن الاستعمار والصهيونية استطاعوا أن يجندوا لمصلحتهم أنواعاً من الإسلام السياسي الخائن والعميل.

كانت هذه فترة تتميز بقوة الاستعمار الاستيطاني النازي الأمريكي وحلفائه، وتمتاز بضعف المعسكر الروسي، وما تبقى من الاتحاد السوفيتي السابق ومعسكر وارسو، وأساءت أمريكا وحلفاؤها استخدام هذه الفترة وخصائصها.

ثانياً: صحوة التحرر الوطني بشقيه اليساري والإسلامي[8]

إن الاستعمار والصهيونية استطاعوا أن يجندوا لمصلحتهم أنواعاً من الإسلام السياسي الخائن والعميل، مثل ما يطلق عليهم زوراً الإخوان المسلمين الناشطين في مصر وسوريا وبلدان عربية وإسلامية أخرى وبلدان يحكمها حكام خونة، وعملاء للاستعمار والصهيونية مثل دويلة قطر، وما يطلق عليها السعودية وأمثالهم. إلا أنه ظهر بالتوازي إسلام سياسي آخر مختلف جذرياً ومعادياً للاستعمار والصهيونية، مثل إيران كدولة وحزب الله كتنظيم في لبنان

(8) السيد أمين شلبي، العلاقات الأمريكية- الروسية... إلى أين... وجهة نظر صينية، مجلة السياسة الدولية، العدد 171، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، 2008، ص ص191-192.

يقود حركة المقاومة اللبنانية متعددة الأديان والملل، والتي تحقق انتصارات كبيرة ضد الاستعمار والصهيونية وحلفائهم وعملائهم.

وقد بدأت الأزمة الاقتصادية للمعسكر الرأسمالي تتفاقم بشدة، فوصلت ديون دولة الاستعمار الاستيطاني النازي أمريكا إلى 17 تريليون دولار(التريليون 1000 بليون والبليون ألف مليون)، منهم (6) تريليون دولار ديون للصين، التي أصبحت نظرياً القوة الاقتصادية الثانية في العالم، ولكن عملياً هي القوة الاقتصادية الأولى، وهي دائما تدعم روسيا وقوى التحرر ضد أمريكا وحلفائها وعملائها في كل المواجهات العالمية، وآخرها سوريا، الإمبريالية الأوروبية لا تعانى فقط من أزمة اقتصادية حادة، مثل أمريكا، بل أيضاً من نسبة بطاله عالية جداً تعدت الـــ**(30%)**، في بعض البلدان وأكثر من **(50%)**، في وسط الشباب[9]، وتعاني هذه البلدان الإمبريالية من الدرجة الثانية من فساد مستشرى واستقطاب سياسي واجتماعي حاد.

(9) See: Jeffrey Mankoff, Vladimir Putin and the Re-Emergence of Russian Foreign Policy, Yale University, Department of History, 2006, p.13.

ويأخذ هذا الاستقطاب شكلاً خطيراً يتمثل بتزايد قوة التنظيمات اليسارية، خصوصاً الشيوعية التي تتبنى أفكاراً وسياسات اشتراكية حديثة، تتجاوز الاشتراكية البيروقراطية الستالينية التي سقطت، وفي الجانب الآخر تتزايد قوة التنظيمات النازية الجديدة ذات الشعارات الفاشستية شديدة اليمينية والتخلف والعنصرية والمعادية للسكان من أصول أجنبية، وهذه الأمبرياليات من الدرجة الثانية تخضع خضوع ذليل للإمبريالية الاستيطانية الأم أمريكا، والتي تحاول تحميل الأمبرياليات الأوروبية مشاكلها.

في ظل هذه الظروف وبعد هزيمة الإمبريالية في إيران وسوريا، وصعود قوة روسيا مدعومة من الصين، وتقلص نفوذ أمريكا وحلفائها، تتفجر معارك أوكرانيا وأكبرها في القرم وهي في قلب أوراسيا، ولقد تصاعد رفض القرم للانقلاب اليميني الفاشيستي في كييف بسرعة، ودعمته روسيا رافضة كل الضغوط الخارجية، وعادت القرم ذات الأغلبية الروسية جزءاً من روسيا، تاركة أوكرانيا خلفها لتدفع ثمن عنصرية وفاشستية.

وظهرت روسيا أكثر قوة وكل الإمبريالية الغربية بقيادة أمريكا، تفوق كل المتوقع وبدء الشيء نفسه يحدث في شرق أوكرانيا وجنوبها، وبدء الوضع يتبلور أكثر على أنه ليس صراعاً بين روس وغير روس، ولكنه صراع بين قوى رافضة للحكم الفاشيستي اليميني في كييف المدعوم من امريكا، وبين

هذا الحكم الفاشستي الذى أستولى على الحكم بانقلاب عسكري مدعوم من الإمبريالية، وسوف يزول عن طريق إرادة شعبية، هذا الإرادة هي الأساس ودعم روسيا عامل ثانوي ولكنه مستمر، وهو دعم سوف لن يتأثر بالعقوبات الأمريكية ضد روسيا، فإذا كانت هذه العقوبات قد فشلت ضد إيران، فهل ينتظر أحد أن تنتصر ضد روسيا.

أما في معسكر اليسار ومعسكر التحرر الوطني بشقيه اليساري والإسلامي، فيجب ملاحظة أن اليسار يعيد تنظيم صفوفه، وتجاوز مرحلة التفكك والتحلل والانهيار، نتيجة التصلب الفكري، وعدم تطوير الأفكار مع تطور العالم، وعبادة الأفراد والفساد والبيروقراطي، وغيرها من العوامل التي تسببت في انهيار الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية[10].

(10) See: Thorsten Nestmann, US-Russia economic relations: Room for improvement - but do not expect too much, Deutsche Bank Research, International topics, July 6, 2009,p.p1-8.

ثالثاً: الخلاصة والرؤية المستقبلية

لابد أن يلاحظ كل مراقب للأحداث أن للتاريخ منطقه الخاص، بصعود وهبوط الإمبراطوريات، مهما طال أو قصر الزمن وأن الشعوب هي صاحبة الكلمة الأخيرة أيا ما كانت الأيديولوجيات أو النظم السياسية والاقتصادية التي تختارها.

لذلك يمكن توقع انهيار تدريجي، ولكن سريع للنفوذ الامريكي وحلفائه، صعود اليسار في العالم كله بأشكال مختلفة يغلب عليها الجانب الديموقراطي متعانقاً مع العدالة الاجتماعية، سوف تحقق بعض البلدان ذلك تحت مظلة اليسار الديموقراطي الثوري، وبعضها تحت مظلة الإسلام المعادي للاستعمار والصهيونية، والبعض الآخر تحت مظلة التزاوج الديموقراطي بين اليسار الثوري والإسلام المعادي للاستعمار والصهيونية، سوف يزول الكيان الصهيوني من على خريطة الشرق الأوسط، سوف تؤثر كل هذه التطورات تأثيراً إيجابياً في منطقة أوراسيا، متحدية كل محاولات الأمريكية للسيطرة على أوراسيا، وسوف تكون هذه التطورات في منطقة أوراسيا عاملاً أساسياً في تسريع هذه التطورات الإيجابية على مستوى العالم كله.

الشعوب هي صاحبة الكلمة الأخيرة أيا ما كانت الأيديولوجيات أو النظم السياسية والاقتصادية التي تختارها.